الشاعر الكبير الغائب سميح القاسم قائلاً يوماً لمحاوره: لم نطلب النكبة والنكسة والكوارث لنكون شعراء مقاومة

الإنسان الضعيف تُسكِره النجوميّة... أصدقاء قصيدتي هم عزائي الوحيد

عام 2000 حاور طلعت سقيرق الشاعر الكبير الراحل سميح القاسم، وهنا وقائع الحوار:

● بعيداً عن المقدمات المعروفة، أدخل مباشرة صلب الموضوع: كيف ينظر سميح القاسم إلى مسيرة شعره؟ ليتك تستحضر الناقد لديك؟

- يجوز القول إن الشاعر هو أفضل ناقد لنتاجه، وهو أسوأ ناقد لنتاجه في الوقت نفسه. أميل إلى إعفائي من الحالتين. لكن استجابة لإلحاح سؤال كهذا أستطيع القول أو التحدث عن الأمور العائمة على السطح، كتحول القصيدة من الإيقاعات الحادة والألوان الزاهية والقوية في مرحلة الصبا والشباب، إلى حالة التداخل الإيقاعي والتداخل اللوني. خفوت الصوت بعض الشيء واقتحام ألوان الشك لمواقع اليقينية المطلقة التي تميز روح الشباب. لكن يبقى هناك الخط السري الذي يصل بين القصائد الأولى والقصائد الجديدة من دون شك. بكلمات أخرى، تتفاوت أدوات التعبير بتفاوت الزمن والتجربة وتراكم معرفي ووجداني هو من طبيعة الحياة. ويبقى الهاجس الأساسي، هاجس الحرية والعدل الإنساني، بحيث يشتبك السياسي بالوجداني بالمجرد بالمطلق، والشك باليقين. هذه سمة تجربتي بخطوط عريضة بين الأمس واليوم.

● تأخذني هنا للسؤال عن النقد والنقاد. كثيرون تناولوا شعرك ودُرست تجربتك الشعرية بغزارة. هل وصل النقاد إلى العمق؟ ماذا أخذت من هذا النقد، ما رأيك فيه؟

- هناك نقاد ساعدوني في معرفة ذاتي من دون شك، وأعني النقاد الذين لم يقتصر نقدهم على المعنى، ولا على الخطوط العريضة في الشكل، بل تعمقوا في هذه التجربة واستشفوا أموراً تتصل بالذات، بالسايكولوجي، باللغة. على سبيل المثال فوجئت بدراسة كبيرة من ناقدة وباحثة أميركية هي الأستاذة تيري دي يونك التي كتبت دراسة عميقة ومهمة عنوانها «سميح القاسم وتحديث الجناس» إذ نظرت في تحديث الجناس العربي في قصيدتي، وبهذا لفتت نظري إلى مسألة كنت أعيشها من دون أن أنتبه إليها، وهي مسألة المحاولة المستمرة لتكوين حداثة على أسس تراثية أصيلة، حداثة لا تتنكر للماضي، ولا تتقزم أمام حداثة الآخر الغربي أو الأجنبي، لكن تكون ذاتها من خلال التجربة في سياق عملية الكتابة وبالرجوع بقدر كبير من الحب والحنين إلى مقوّمات فنية متوافرة في تراثنا على نحو ملحوظ.

● في شعرك دراما. لنقل هناك إصرار على محاورة الذات الخارجة على الذات الشاعرة، أي ذات المتلقي. هذا يشدّ السامع أو القارئ؟

- آمنتُ دائماً بأن الدراما هي عنصر جوهري وأساسي في العمل الشعري، وقد يعود ذلك إلى بدايات ثقافتي الشعرية. قد يعود ذلك مثلاً إلى مغني الربابة الذي سمعته في بيت جدي، وتتبّعت أداءه عبر وجوه الحضور. أيضاً أحب المسرح، وقد كتبت المسرح من وقت إلى آخر. فمن الطبيعي أن يكون العنصر الدرامي قائماً، وهي مسألة أشار إليها معظم النقاد الذين كتبوا عن تجربتي. بلى، إنه شديد الحضور في قصيدتي. والعنصر الدرامي حتى في صيغة المونولوج يفترض الآخر ويستدعيه.

● ألاحظ أن قارئك ومستمع شعرك يعيش فسحة الشعور بأنه كاتب القصيدة، مشارك في صوغها، كأنّ القصية تنبع منه هو: ألا تطرح هذه النقطة تساؤلاً؟

- أنا معك في ذلك. هنا تدخل نظرية التقمص، وهي نظرية تنبع بلا شك من خلال تراث الموحّدين، وقد كان لي أن نشأت في بيئة مدهشة في تنوّعها وتعدديتها. نشأت بين جد فقيه علامة في شؤون الدين، وجد علماني حداثي بشكل متطرف. في الحقيقة في طفولتي عايشت مناخات وأجواء متعددة ومدهشة في رحابتها وفي ثرائها، وانعكس ذلك أيضاً في تجربتي. ساعدني بعض النقاد في رؤية أنني أفيد كثيراً من الرموز الدينية القرآنية والتوحيدية والمسيحية وحتى من البودية ومن ديانات قبائل الإنكا. قصيدتي لا تستطيع بالطبع أن تكون إلاّ علمانية مثل صاحبها، لكن لم تجد هذه القصيدة غضاضة في وجود هذا التداخل، هذا التنوع الجميل في رأيي بين القرآن الكريم وأبي ذر الغفاري وكارل ماركس وابن خلدون. جمعت ما يبدو مجموعة من التناقضات، لكن هذه التناقضات وجدت صيغة من التناغم، من التعايش، من خلال تجربتي.

● ثمّة شعراء يتحولون إلى رمز، أنت واحد منهم.

- لا يتحول الشاعر إلى رمز إلاّ من خلال قصيدته. في الحقيقة، الشاعر يفيد من «قصيدته» في ذلك. الحضور الأساسيّ للقصيدة وليس للشاعر.

● ربما أشير هنا إلى هذا التواصل والتماهي الحميم بينك وبين الجمهور.

- أنا سعيد بهذا التواصل الحميم بين قصيدتي والجمهور. هذه المشاركة تنجم أيضاً عمّا يجوز تسميته بالتماهي بين ذاتي وذات الآخر. هناك شيء من التماهي لم أخطّط له. لكن يبدو من ردود الفعل على هذه القصيدة أن هناك تماهياً إنسانياً ووجدانياً وفكرياً أيضاً بيني وبين عدد كبير من الناس.

● في سنوات مضت اعتبرت غزيراً في إنتاجك، ثم بدأت في الإقلال والتأنّي. ما هو في رأيك سبب التحوّل إلى الإقلال؟

- أعتقد أن هناك خطأ بصرياً في الشطر الأول من عمري. ربما كنت أكتب القصائد بالمقاييس العادية وبتوهج الشباب. كل قضية تصادفني تتفجر من خلال قصيدة. بمرور الزمن تصوّرت لدي صيغة السربية أو المطولة حيث ظهرت سربيتي الأولى «إرم»، لكن لم أعتمدها شكلاً أساسياً إلا في العقدين الأخيرين. هذا الشكل من المطوّلات الشعرية السربيات التي تقوم على التداعي ولا تقوم على وحدة الشكل تقوم على تعددية الحالات واللمحات والإيقاعات والأشكال، لكن ينتظمها هاجس واحد أساسي من بدايتها حتى نهايتها مع تشعبات واستطرادات كثيرة في الشكل وفي المضمون وفي الصور. هذا هو الشكل الذي أسميته بالسربية والذي كما يبدو استراح له عدد من الشعراء، من أصدقائي الشعراء، وبينهم شعراء كبار تبنّوا هذا الشكل وكتبوا به. لذلك أصبحت عناويني أقل غزارة. لكن العمل الشعري حافظ أو ربما صعد من وتيرته.

● الانتفاضة كتبها سميح القاسم بتميز. ما هو أثرها في أدبك عامة وفي أدبنا الفلسطيني بكامله؟

- نقاد كثيرون بحثوا عن إرهاصات الانتفاضة في قصائدنا، في الشعر العربي الفلسطيني، وألمحوا إلى مقاطع وإلى أبيات وإلى قصائد كأنما بشرت بالانتفاضة وحرّضت عليها، وهذا اقتراح مشروع ومبرّر عند الناقد. لكن الانتفاضة الأولى لم أكن مراقباً فيها، بل أتيح لي أن أشارك في بعض فعالياتها. لذلك كانت قصيدة «رسالة إلى غزة لا يقرؤون» من قلب الحدث وعرفت بشكل واسع.

● أعتقد أنها قصيدة الانتفاضة وأول قصيدة عنها.

- كانت أول عمل شعري متكامل كتب في قلب الانتفاضة وبدأت إيقاعاته على إيقاع قنابل الغاز والرصاص المطاطي والشظايا التي كانت تتطاير حولي في القدس. إيقاعاتها بدأت هناك. أخذت إيقاع الشارع وإيقاع التظاهرة ورائحة الغاز المسيل للدموع التي دخلت رئتي. كأنّما هذه الأمور كلها كتبت نفسها في هذه القصيدة. رغم البساطة الظاهرية والمباشرة الفنية الموجودة فيها بلا شك.

● إنّها من نوع الشعر الذي نطلق عليه تسمية السهل الممتنع.

- قد تكون تسمية السهل الممتنع هي التسمية الأدق، بلى، بحيث يعتقد كل قارئ أنه يستطيع أن يكتبها، لكني اكتشفت أنا شخصياً أنني لا أستطيع أن أكتبها مرة أخرى. لا أستطيع أن أكتب مثلها مرة أخرى. هذه القصيدة لم تكن من خارج الانتفاضة، بل كانت من داخلها، وكانت إيقاعها وكانت لحمها وكانت دمها، لذلك بقيت وترددت كثيراً. هي قصيدة الانتفاضة بالفعل. في كل أمسية شعرية أطالب بقراءتها، أحياناً أشعر بضيق، أريد أن أقرأ شيئاً جديداً مختلفاً، ويصرّ الجمهور على قراءتها. أحياناً أدعي أنها ليست معي لأتهرّب.

● لكن لا تنسَ أن الجمهور بات يحفظها، فهو يردّد معك ما تقرأ حين تفعل.

- بلى، حين أقرأ هذه القصيدة يردّدون معي. نعود إلى شعر الانتفاضة عامة. ليس بالضرورة أن كل ما يكتب عن الانتفاضة شعر جيد، وليس بالضرورة أن يكون الموضوع العادل والجميل والجيد كافياً لتبرير قصيدة. هناك قصائد جيدة كتبت عن الانتفاضة، وهناك قصائد رديئة كتبت عن الانتفاضة. تحوّلت الانتفاضة إلى هاجس ليس في الشعر الفلسطيني فحسب، بل في الشعر العربي كلّه، لأنها تحوّلت من حدث سياسيّ إلى همّ قوميّ ووطنيّ وإنسانيّ. فوجئت في بلجيكا بشاعر يقرأ لي قصيدة عن الانتفاضة باللغة الفرنسية. فوجئت في ألمانيا بشاعر ألمانيّ يقرأ لي قصيدة عن الانتفاضة بالألمانية. فوجئت في أكثر من بلد أجنبيّ بشعراء وشاعرات كتبوا قصائد بعنوان «انتفاضة» لفظ الكلمة بالعربية وبحروف أجنبية.

● قد أقف هنا عند نوع من الأدب «الإسرائيلي» الذي كتب عن الانتفاضة، ماذا نقول عن هذا الأدب أو هذا النوع؟

- ليس لديّ قدر كاف من العنصرية بحيث أنفي الصدق عن كل ما كتب. قد يكون هناك شاعر عبريّ شعر فعلاً بالإهانة من تصرّفات دولته وجيشه وشرطته واستفزّ وكتب قصيدة صادقة. قد يكون ذلك. لكن عامة، تظل الكتابة العبرية في معظمها نوعاً من تبرئة الذمّة، تسجيل موقف، ولم يزل هناك وقت حتى يتحوّل الإنسان الفلسطيني والإنسان العربي إلى هم حقيقي أو إلى نقطة قلق عند الكاتب «الإسرائيلي». ما زال يكتب بفكره وبآرائه وأشك في أن يكون الإنسان العربي قد تحول إلى همّ وجوديّ لدى الكاتب العبريّ.

● قيل الكثير عن الأدب المقاوم. لن أدخل في التوصيفات الجاهزة. لكن هناك من رأى بشيء من الغباء ربما أن الأدب المقاوم كلّه سيطير بنفخة عندما يحلّ السلام. أصرّ على أنّه رأي غريب. لكن أودّ هنا أن أسألك ماذا تقول عن هذا الأدب حاضراً ومستقبلاً؟

- لنقل لهذا الرأي الغريب أولاً: ليستردّ شعبنا حقوقه وليطر أدب المقاومة في الهواء! لم نطلب النكبة ولم نطلب النكسة ولم نطلب الكوارث لنقاومها ولنكون شعراء مقاومة. ثانياً لم نطلق على أنفسنا شعراء المقاومة أو أدباء المقاومة. التسمية أطلقت علينا من الخارج ونعتزّ بهذا اللقب، وأولئك الذين يقفون هذا الموقف من أدبنا هم محرجون، نظروا إلى نوع آخر من الأدب ولم تقدّم نظرياتهم إبداعاً استحق الحياة أو استحق الوجود. في المقابل ظهرت ظاهرة شعرية وأدبية أقبل عليها الشعب العربي والقارئ العربي وعانقها وأحبها واحتضنها وحفظها عن ظهر قلب، لذلك اعتبروا هذا الأدب كأنما هو صخرة تحطمت عليها أمواجهم وتطايرت عليها رذاذاً. أنا مع تعايش التجارب الأدبية. ليبدع كل من شاء كيف شاء. لا أضع مواصفات للشعر ولا للنثر ولا للنقد، أقول قصيدتي مثلما يقولها زملائي، بتجربتنا، بطاقتنا الفنية، بوعينا وبوجداننا، ونتابع الحياة مثلما ينبغي أن نتابعها، لكن يبدو أن السلام والحرب معاً لا يستطيعان محو وجدان شعب وذاكرة شعب. نرجو أن تنتهي الانتفاضة إلى نصر وألا يضطر شعبنا إلى الانتفاض على الاحتلال طبعاً من خلال زوال الاحتلال. لكن أعتقد أن جمهور الشعر العربي سيحنّ دائماً إلى نماذج كثيرة من شعر الانتفاضة وسيحفظها عن ظهر قلب بمثل ما يحفظ صورة جده وجدّ جده. مضى الأجداد من العالم وما زالت صورهم في قلوبنا وفي منازلنا وفي دفاترنا وفي مكتباتنا، لذلك أعتقد أن التعامل النقدي مع هذه التجربة يجب أن يكون أرقى وأصدق وبعيداً عن العقد الذاتية والإحباطات والشعور بالقزامة أمام هذه التجربة أو تلك.

● حبّك للتجديد واضح جليّ في شعرك ونثرك. ما هو مفهومك للتجديد من ناحية، وللحداثة من ناحية أخرى؟

- أنا بطبعي ملول. هذا ينعكس على تجربتي. لا أحب التكرار. أحب المغامرة الفنية وأمارسها على مزاجي وبكامل حريتي وأحترم حسّ الآخرين بالمغامرة الفنية. لذلك من الطبيعي أن يلتقي في تجربتي المناخ الكلاسيكي بالمناخ الحديث، السوريالية بالواقعية الاشتراكية. هذه شخصيتي في الحياة.

● أنت من الأسماء القليلة جداً التي عرفت بشكل واسع النجومية. ما تأثير النجومية في شعرك وأدبك؟ ألا تشعر بأن حب الناس يحاصرك ويطالبك بالمزيد دائماً؟

- تسمية النجومية هي من خارجنا. أما تأثير هذه «النجومية» (يصرّ على وضعها بين قوسين) فربما لا شيء. لا تؤثر في القصيدة وفي السلوك الشخصي. في رأيي فقط الإنسان ضعيف الشخصية تسكره النجومية وتفقده القدرة على الاتزان. الأمر الأساسيّ لديّ هو هذا الاكتشاف الجميل لأصدقاء لقصيدتي. في كل مكان أذهب إليه هناك أصدقاء محبون أوفياء لهذه القصيدة وهذا عزائي الوحيد.

أشدّ حزناً من الماء

■ جمال العفلق

عاش نحو خمس وسبعين سنة... وأرضه محتلة.
عاش نحو خمس وسبعين سنة... ينتظر فرسان العروبة والعرب.
عاش نحو خمس وسبعين سنة... يجدل من حروف اللغة بنادق للمقاومة.
عاش ينتظر... لكنّه اليوم سيعيش أبد الدهر لأنه لم يقبل أن يسلّم مفاتيح أرضه للاحتلال، ولم يسلّم تاريخه وتراثه، ولم يسلّم للهزيمة رغم المرارة والألم.
عاش سميح القاسم حياته مثل غيره من المقاومين، ليبقى أبد الدهر... فهو القائل:

ولدت ومهدك أرض الديانات
مهد الديانات أرضك
مهدك، لحدك...

اليوم لا عزاء لنا إنْ بقينا على حدود فلسطين ننتظر ونترقّب ساعة الحسم، نودعك وأنت الباقي وهم الذين رحلوا – نودعك وأنت المقاوم – والصابر والمتفائل والداعم – كم من الكلمات كتبت؟! فمن حافظ على تاريخ أمته ووثق جرائم الاحتلال الصهيوني وفضح من تواطأ على هذه الأرض هو كمن أسقط أسطول طائرات معادية.

بلى، كنت تنتظر الفتح والتحرير، ورحلت وبقينا نحن في الانتظار مؤمنين بالنهج المقاوم، مؤمنين بأصحاب سلاح الحق، فمنهج الباطل المظلم طال وجوده على أرض الديانات والمقدسات.

يسعدني أن أنقل إليك خبراً أنت تعرفه، ولن يدهشك إنْ سمعته، لكن يجب أن أخبرك به.

اليوم قال السيد أوباما إنّ مقتل صحافي أميركيّ على يد «داعش» صدم ضمير العالم كله. اليوم قال لنا السيد أوباما إنّ العالم لا يزال فيه ضمير. وكم ناشدت أنت يا سميح القاسم العالم والضمير الإنساني كي يستفيق للحظات لأجل أطفال فلسطين؟

لأنني لا أجيد تقديم العزاء، ولأنني مؤمن بأننا نحن المستضعفين في الأرض خالدون إنْ بقينا على مواقفنا، وبأننا سنعيش أكثر مما سيعيش قاتلنا، وبأنّ علينا عهداً وميثاقاً أن نحفظ دماء شهداء المقاومة ونحفظ الأرض والعرض، أن نحمي الإنسانية من طاغوت العصر، أعدك بأنني لن أغنّي للسلام... مثلما كتبت أنت، وكيف نغني للسلام وهم يتمنّنون علينا بجزء من أرضنا التي سلبوها؟!

كيف نغني للسلام ومال من يقولون إنهم عرب يُدفع لقتل أهل العراق وسورية ولبنان وفلسطين؟!

كيف نغني للسلام وخرج علينا من يقول إن القرآن العربي يجب تصحيحه، وإنّ «خليفة» المسلمين لهذا العصر يصف مرتزقته بأنهم ملائكة من السماء؟!

كيف سنغني للسلام وفي بيروت من حمل الخنجر المسموم لطعن المقاومة؟!

كيف سنغني للسلام وفلسطين تذبح... والطائرات الصهيونية تقصف بيوت عوائل القادة بحجة أنها تملك معلومات عن وجودهم في تلك البيوت، وهي كاذبة مثل طبيعتها الإجرامية، لكنها تريد زرع الخوف في صدور المقاومين بقتل طفلة لم تتجاوز الشهور الستة من عمرها.

سنبقى نقاوم بالخنجر، بالحجر، بالبندقية، سنبقى نقاوم... فالذي صدم السيد أوباما بحساب الأرقام مثلما اعتاد أهل الدولار هو شخص واحد يحمل في جسده ستة ليترات من الدم ودمه أحمر مثل دمنا، فهل حسَبَ السيد أوباما كم ليتراً من الدماء دفعنا في هذه الأرض حتى الآن؟ وكم إنساناً أهمّ من الصحافي الذي حزنّا بالتأكيد على قتله، ليس لأنه أميركيّ، بل لأنّ الإنسانية تذبح.

سميح القاسم وداعاً... سوف نردّد دوماً رسالتك الى غزاة لا يقرأون... ونردّد رسالتك الى بغاة لا يفقهون... فهذه الأرض لنا وسنعيد المجد من بغداد الى القدس عبر دمشق وبيروت.

بيتر براون: هذه حقيقة سقوط روما ونشأة القسطنطينيّة

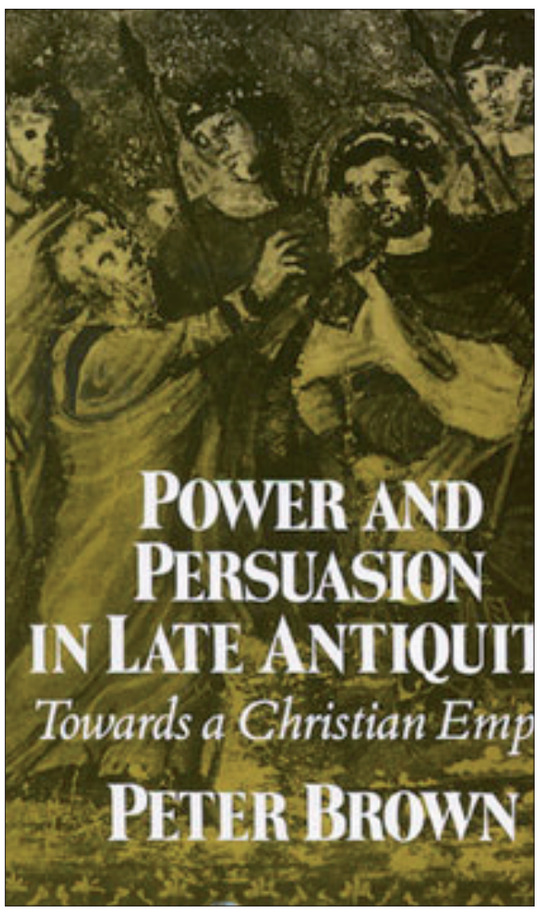

كتب حسّونة المصباحي: يتّفق العديد من المهتمين بالتاريخ القديم على أن المؤرخ بيتر بروان المولود في العاصمة الإيرلندية دبلن عام 1935، هو واحد من أكبر المتخصصين في العصور الرومانيّة. تتميّز أعماله بالصرامة والجديّة، كانسة العديد من الكليشيهات الشائعة منذ أمد بعيد. ومن أهمّ أعمال براون كتاب عن سيرة القديس أوغسطين كان أصدره في الثالثة والثلاثين من عمره ليحصل بفضله على شهرة عالمية واسعة.

يصف المؤرّخ الفرنسيّ الكبير بول فاين، وهو أستاذ كرسيّ في معهد دو فرانس، طريقة بيتر براون كالآتي: «لا شيء في اليدين، ولا شيء في الجيب»، ومعنى ذلك أن هذه الطريقة بسيطة وسهلة، لكنها ناجعة إلى حدّ كبير.

في أحد الحوارات التي أجريتها معه، يقول بيتر براون مجيباً عن سؤال يتعلق بسقوط الإمبراطورية الرومانية، منتصف الألفية الأولى، تحديداً عام 476: «إن هذا التاريخ لا يعني شيئاً كثيراً. وما حدث هو أن إمبراطوراً رومانياً يدعى روميلوس أوغستينوس تخلّى عن السلطة سلميّا. وقد فعل ذلك مقابل راتب يعادل راتب عضو في مجلس الشيوخ يعيش في المنفى. كما حصل على فيلا فخمة تشرف على بحر مدينة نابولي الإيطالية. ولا أعرف مصدراً غربيّاً واحداً يقول بأن هذا التاريخ، أي عام 476، مهمّ، أو خط فاصل بين مرحلتين. وفي بلاد الغال وجرمانيا وإيطاليا وأفريقيا، وهي جميع المناطق الخاضعة لإدارة روما، لا نعثر على أيّ أثر يعطي أهمّيّة حتى لو كانت صغيرة لهذا الحدث الذي نعرفه من خلال مدوّنات أنجزت في القسطنطينية، تلك المدينة الشرقيّة التي زعمت أنها قادرة على تأمين تواصل الإمبراطورية الرومانية. ورغم أن هذا الأمر يبدو صعب التخيّل، لا بدّ من الانتباه إلى الجزء الذي ظلّ حيّاً بعد انهيار إمبراطورية روما، والذي سوف يسطع انطلاقاً من مكان جديد يدعى اليوم إسطنبول».

يتابع بروان قائلاً: «إن تحوّل الإمبراطورية هذا، الذي تمّ في اتجاه الشرق انطلاقاً من عام 500، مهمّ جدا بالنسبة إلى طريقة فهمنا للتاريخ، إذ أنه يوضح كيف أن الإمبراطورية الرومانية في الشرق أرادت أن تضع حدّا للطور الغربي. وفي هذه المرحلة تأسست ممالك محليّة يتعايش فيها المدنيّون والعسكريّون، وهاتان الفئتان الاجتماعيتان وجدتا أنه من المفيد لهما أن تسمّي كلّ واحدة منهما «بربرية» لضمان استقلاليتهما حيال نظام مركزي، تماما مثل مرتزقة روما الذين حصلوا على مرّ القرون على نوع من الاستقلالية حتى أنهم أصبحوا بمثابة الدولة داخل الدولة».

لكن ما معنى كلمة «بربري» عهدذاك؟ عن هذا السؤال يجيب بيتر براون: «من المؤكّد أن كلمة بربري لم يكن لها في ذلك الزمن المعنى المتعارف عليه اليوم. فلم يكن لهذه الكلمة معنى إثنولوجي، ولم تكن تهدف إلى الإشارة إلى غريب أو إلى مجموع من الناس ينحدرون من حضارة برتبة أدنى. كانت بالأحرى كلمة تحدّد هويّة اجتماعيّة معيّنة. فالبربريّ هو رجل يمارس مهنة السلاح في مقابل الرجل الذي يخدم الأرض مثلا. وإذا كان الأول يقول اختياريّا إنه «بربري» فإن الثاني يطالب بأن يكون مواطنا رومانيّا». «وهذا الفصل بين العسكريين والمدنيين كان مقبولاً جدّا على مدى القرن السادس. وبقبولهم هذا الفصل أضحى معمولاً به حتى في القطاعات البعيدة يمكن القول إن الرومان هم الذين مهّدوا بطريقة أو بأخرى لظهور البرابرة الذين سيعوضونهم. «بعد سقوط روما، باتت سلطات القسطنطينية التي كانت ثانوية، تتصرف كأنها رومانية أكثر من الرومان، مطوّرة مع مرور الزمن عدّة تفوّق. حتى الجنود والمرتزقة البرابرة الذين كانوا في خدمة بيزنطة باتوا يعلنون أنهم رومان. بعد ذلك وجدت السلطة المركزية في القسطنطينية نفسها عرضة لغزوات جديدة، ما أفرز عداء ضدّ «البرابرة».

عن القسطنطينية يقول بيتر براون: «نتصوّر أن عاصمة بيزنطة هي في النهاية إغريقية من ناحية الفكر. لكن عام 500 كانت القسطنطينية رومانية لا إغريقية، ذلك أن الرومان كانوا يسيطرون آنذاك على الجزء الهيليني من البحر الأبيض المتوسط منذ ستة قرون! وما تميّزت به الإمبراطورية الرومانية الشرقية على المستوى التاريخي هو التعدّد اللغوي والثقافي. اليوم تفرض علينا ثقافتنا الأوروبية المتأثرة بالنزعة القومية الاعتماد بأن الوحدة السياسية والقوّة تتناسبان بالضرورة مع الوحدة اللغوية والثقافية. غير أن القسطنطينية شكّلت العكس تماماً. هذا ما فهمه الأميركيّون جيّدا». كانت الإمبراطوية الشرقيّة إغريقية الثقافة ولاتينية اللغة. وهنا أقدّم مثالين مهين جدّا: المثال الأول هو العدد الهائل للقواميس اللاتينية والإغريقية، والكتب المترجمة التي عثر عليها علماء الآثار في مصر على سبيل المثال. كما عثر أيضاً في عدّة مناطق من الشرق الأوسط على مؤلفات كاملة في مجال القضاء. ولا نجد شبيها لذلك في المناطق الغربية للإمبراطورية الرومانية، لا في إيطاليا، ولا في بلاد الغال، ولا في أيّ منطقة أخرى». «بات واضحاً الآن أن ما نسمّيه اليوم بالقضاء الروماني، وهو مصدر جميع التشريعات القضائية في الغرب هنا، هو في الحقيقة ثمرة تراث القضاء البيزنطي. واستناداً إلى ذلك يمكن القول بأن القسطنطينية أثّرت في الغرب أكثر مما أثرت فيه روما».

فضاء حرّ

الصوت النشاز وسط الجهل والطائفية

1/2

■ جورج كرم*

كل مهاجر يغادر أرض الأمة ليقيم أو ليعمل في البلاد البعيدة ينقل معه صورة جامدة عن حال الأمة في الزمن السياسي والاقتصادي الذي غادر فيه، ويبقى أسيراً لهذه الصورة طوال سنوات عمره المتبقية أحياناً، فيما الحياة السياسية في الأمة تتطور. وفي حال لبنان نراها تتقدم خطوة إلى الأمام حيناً وأميالاً إلى الوراء أحياناً. ولعل التطور الوحيد الملموس في لبنان منذ التسعينات إلى اليوم هو في رأس الأرغيلة الذي قد يتكوّن من نصف رأس بطيخ أو حبة شمام أو أناناس في هذه الأيام، بحسب ما شاهدت وأنا أمر في «لحظة تخلّ» قرب مقاهي داونتاون قطر–الحريري. والإنجاز في تطوير الأرغيلة ورأسها هو بلا ريب علم وفن حلّق فيه لبنان عالياً، حاملاً رايته بين الأمم، بحسب مدرسة ميشال سليمان الفكرية مثلاً.

تماهيت مع الوضع المذكور آنفاً عينه وقد تركت البلاد قبل انتهاء الحرب الأهلية في البلاد بأشهر قليلة، وكنا عانينا ما عانينا من إجرام الأحزاب الإنعزالية مثل الكتائب والأحرار و«القوات» واضطهاداً بسبب مواقف اتخذناها مثل العداء للكيان الصهيوني حليف الأحزاب الإنعزالية وراعيها آنذاك، أو اعتناق الفكر اللاطائفي الذي كان يعاقب حامله بالتهديد أو مصادرة شقة فارغة يعتاش من تأجيرها، أو بناء تمثال لـ«شهداء الكوكايين» من مرتكبي المجازر العديدة في حق الأبرياء على نحو غير شرعي فوق أرض يملكها، ناهيك عن الخطف والتعذيب على أيدي أجهزة الاستخبارات المختلفة لتلك الأحزاب المتطرفة في حقدها الطائفي لو قرر جلاد المنطقة ذلك في حق أحد الأبرياء من خصومه.

حال البلاد الجامدة في نظر المهاجر تشبه فيلماً سينمائياً توقّف دورانه في لحظة معينة، وما برح المهاجر ينظر إلى الصورة الجامدة على الشاشة بدلاً من متابعة قصة الفيلم ووقائعه اللاحقة. وفي حالتي الشخصية، كان ظلم الكتائب وأعوانهم وعمالتهم الصورة الجامدة عن وضع بلادي الماثلة في ذهني، ولم تشفني زياراتي العديدة للبلاد بعد الهجرة من ذلك، بل رحت أبحث عن أولئك الزعران القتلة خلال زياراتي للبلاد بعد انتهاء الحرب الأهلية لمواجهتهم وفضح ارتكاباتهم وحتى للإقتصاص منهم أحياناً. وذهلت بأن العديد منهم أضحوا اليوم «حلفاء» يتكلمون بتعفّر في مفهوم المشرقيّة والمقاومة، لكنهم ما فتئوا يصدحون بعنصريتهم كلّما أتوا على ذكر أهالي بلاد الشام والجنوب السوري المحتل. أما السواد الأعظم لأولئك فما انفك يجعجع من متراسه الطائفي الميليشيوي، مع الفرق أنه اليوم حليف طبقة لبنان البورجوازية من موظفي ديكتاتورية آل سعود الثيولوجية وفي كلتا الحالتين أرى أولئك أعداء سياسيين مع وقف التنفيذ العسكري، ولن أنسى المجازر والتجاوزات التي ارتكبوها، أنا الذي لم أتخط خلافات ما قبل الطائف السياسية ولم تشملني أي مصالحة بداعي السفر.

لم يتغير أصلاً الكثير في ديمغرافية البلاد السياسية منذ الطائف حتى اليوم، فبقي المقاوم مقاوماً، وبقيت المناضلة مناضلة، وإن تغير عنوان المرحلة قليلا ولون علم النضال، إذ يبقى المتقوقع متقوقعاً في كرهه للآخر حتى لو خلت جدران وسط بيروت من آثار القذائف والشظايا ونحف كلام الصالونات واختفى حرف الضاد بيرق لغتنا وفخرها وأصبحت لغة الضاد اليوم لغة «الداد» عند جماعة الساهرين الفارغين من أي كرامة وطنية والذين يبدأون سهرتهم في نقطة الالتقاء قرب «الدريح» وسط العاصمة، قبل أن يحددوا وجهة سهرتهم لتلك الليلة، وهي سهرة سيطلقون خلالها بلا شك سهام كرههم في اتجاه كل من يساهم في رفع شأن البلاد والذود عنها.

هذا الجمود كلّه في التطور الفكري لدى السواد الأكبر من شعبنا يجعل بعض أصوات النشاز ترنّ كتغريد الحسون في أذني، وكلما قرأت موقفاً داعماً لتحرير فلسطين أو معاد للسلام الذليل مع الصهاينة لأحد أبناء المناطق التي كانت تسمى بالشرقية أو الغيتو الإنعزالي وقفت عنده وتمعنت فيه ودققت في صحة صاحبه أو صاحبته العقلية، قبل أن أحتضنهم وأحاورهم مسروراً لوجودهم النادر في محيطنا، وأدقق في صحتهم العقلية، إذ كلما وجدت حلفاء فكريين أصحاء قابلين للتطور في محيطي أزلت عني أنا صفة الجنون التي يطلقها بعض خبثاء القرية على أولئك الذين يحتكمون إلى عقلهم بدلاً من الاحتكام إلى عظة خوري الكنيسة يوم الأحد المليئة بالحقد والتعصب، فكل من ينادي بالحق في قريتي يصفه بعض المتخلّفين فكرياً من الطائفيين بالمجنون، وقد أوصل أحد أبناء العم «المحبين» إلى مفاصل ثرثرة القرية أن «الجنون» الذي أصابني (نتيجة مقالاتي ومواقفي ذات الاتجاه الوطني الواضح) لا بد من أن يكون وراثياً من عائلة الوالدة، مزيلاً الشبهات بذلك عن صحة عائلته العقلية. ولا عجب أن يكون الموقف كذلك في قرية تباع فيها خمسون صحيفة لا أكثر وسكانها بالآلاف!

ما الحال لو كان صوت النشاز في محيط قريتي الغارقة في الجهل والطائفية هو صوت المخرجة المبدعة إيليان الراهب، من خلال مواقفها الجريئة عبر شبكات التواصل اللاإجتماعي، أو من خلال آخر فيلم لها شاهدته حديثاً عنوانه «ليال بلا نوم» وهو فيلم مر على عرضه بضعة أشهر في صالات السينما اللبنانية ولم تتسنّ لي مشاهدته في غربتي، وبالتالي غيابي عن حياة البلاد الليلية ودور السينما فيها. وقد حاولت الحصول على الفيلم بوسائل عديدة ولم أنجح في القيام بذلك قبل أن أزور الوطن هذا الصيف وأتطفل على المخرجة الجارة وأتسلم نسخة الفيلم بين كوب شراب التوت وقطعة الحلوى اللذيذة وذكريات طفولة في ضيافة عائلتها الجميلة.

(يتبع جزء ثانٍ)

*** كاتب سوريّ من جبل لبنان**